طريق نجد و جبل شمّر في المصادر الإيرانيّة

في العصر الصفوي حتّى بداية العصر القاجاري

(٩٠٠ الى ١٢٣٠ هـ) ـ دراسة مقارنة

الأستاذ: رسول جعفريان (جامعة طهران)

الخلاصة:

لاشكّ أنّ طريق العراق إلى الحجاز من أقدم الطرق التجاري في الحضارة الإنسانية الشرقية، وهذه الطُرق مختلفة غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، كما ذكر المَقْدسيّ في «أحسن التقاسيم» أنّ عددها كان إثني عشر طريقاً في بادية الشام.

فبعد طلوع نجم الإسلام وفتح العراق والشام، كان هذه الطرق مسيراً للجيوش الإسلامية، وكذلك الحُجّاج والتجّار والمهاجرون من القبائل العربية الذين يعيشون في العراق وفي الحجاز، وينتقلون دائماً بين هذه البلاد.

وكانت المنطقة وسيعة جداً، البصرة وبغداد والنجف من ناحية الشمال، والرياض والدرعية من ناحية الشرق، وحائل من ناحية الغرب، حتى يصل إلى الحرمين الشريفين في الجنوب الغربي على ساحل البحر الأحمر.

وكان طريق قسم كبير من الحجّاج الإيرانيين و العراقيين في الطريق الذي يعرف في العصور الإسلامية الأُولى بطريق زبيدة، وبعدها بطريق نجد، ثم طريق الجبل، وكلّها في نفس المنطقة. فانتخاب الطريق للحجّ من ناحية الزوّار والحجّاج الإيرانيين و العراقيين تابع لمسألتين:

الأوّل:

كون الحجاج من أهالي ناحية الجنوب ونواحي البصرة، أو من بغداد ونواحي المركزية في إيران لا منطقة أُخرى.

والثاني:

إنّ الأمن في أيّ طريق أحسن من طرق أخر؛ هل من ناحية طريق البصرة أو طريق آخر يسمّى باسم طريق الجبل؟

والنكتة الأخيرة هنا في البحث، التفاوت بين قبل عصر الصفوي وبعده. فالحجاج قديماً من كلّ نواحي إيران وحتى ماوراء النهر، كانوا يجتمعون في بغداد أولاً، ثمّ يسيرون من بغداد إلى الحرمين على طريق يعرف بطريق زبيدة، ثم من طريق نجد ثانياً.

وأما بعد العصر الصفوي وخصوصاً في بداية عصر القاجاري، كانوا يجتمعون في النجف ثم يسيرون إلى الجنوب من طريق الجبل، وهذا تغيير واضح كما نرى في الرحلات الحجّية في العصر القاجاري الفارسي.

(و الحال أنّ حجاج ماوراءالنهر، غالباً يحجون من طريق القوقاز إلى إسلامبول، ثمّ يسيرون مع حجاج الترك إلى الحج من طريق الشام).

ومع الأسف، المعلومات عندنا حول طريق الحج الإيراني من ناحية نجد وحائل في العصر الصفوي والنادري والزندية [من حوالى ٩٠٠ إلى ١٢٠٠ الهجرية] قليل جداً، عكس العصر القاجاري [من حوالى ١٢٠٠ إلى ١٣٢٠ الهجرية].

فمقالتي هذه تشير إلى معلومات حول طريق الحج في المنطقه من عصر الصفوي إلى بداية العصر القاجاري مع دراسة مقارنة للعصرين، مؤكّداً على تغيير المسير من نجد إلى طريق الجبل.

المقدمة:

«طريق نجد» و«طريق حائل» ـ أو كما يسميه الإيرانيون «طريق الجبل» كلمتان لهما مفهوم ذو دلالات عند الإيرانيين. وإذا أضفنا إليهما

كلمة «البادية» تنتج عند ذاك صياغة يُشمّ منها شذى الحج ومكّة والكعبة. وهذه تعبيرات لكلّ واحد منها دوره في رسم الجوّ المعنوي للحج في أذهان الإيرانيين. وهنا توجد حقيقة وهي أنّ لكلمة «البادية» مكانة متميّزة في الأدب الفارسي. وهي تلك الصحراء الواقعة بين العراق والحجاز، وينبغي اجتيازها من أجل الوصول إلى المحبوب «بيت الله».

وقد كانت هذه البادية على مدى حُقَب تاريخية طويلة، طريقاً يسلكه الحجاج الإيرانيون كلّ عام؛ ولهذا السبب، تكتمن في صدورهم محبّة عارمة لهذه البادية على الرغم من كلّ ما يكتنفها من مصاعب.

لقد كان طريق اجتياز هذه البادية على مدى حقبة زمنية مديدة يمرّ في طريق زبيدة، أو طريق نجد، غير أنّ هذا المسلك تغيّر قليلاً في زمانٍ ما، واتُخذ طريق الجبل عوضاً عنه.

وهذا هو الطريق الذي كان يمرّ على مقربة من قلعة حائل وكان الإيرانيون يطلقون عليه اصطلاحاً تسمية «**طريق الجبل**».

طريق نجد وطريق الجبل يمرّ كلاهما عبر البادية، وهما ينفصلان في بعض المنازل ويشتركان في منازل أخرى.

هذه المقالة تسلّط الضوء على الأوضاع التي كان عليها طريق نجد وطريق الجبل في العهد الصفوي، وفي العهد الأفشاري، وفي العهد الزندي [من حوالى سنة ٩٠٧ إلى ١٢١٠ الهجرية النبوية]، وأوائل العهد القاجاري [الذي حكم منذ عام ١٢١٠هـ فما بعدها].

كان أقصر طريق يسلكه الحجاج الإيرانيون والعراقيون هو السير على الطريق الذي يبدأ من بغداد وينتهي في المدينة أو في مكّة. يتضح من خلال النظر إلى الخريطة أنّ السفر من العراق إلى الحجاز يمكن أن يمرّ عبر طرق مختلفة:

أ: من الموضع المقابل للبصرة إلى الحجاز، وهو الطريق الذي كان معروفاً بطريق نجد وطريق لحسا.

ب: الموضع المقابل لمدينة النجف إلى الحجاز، ويمرّ بحائل.

وكلا هذين الطريقين يمرّان بالبادية وهو يمثّل أقصر الطرق بالنسبة إلى الحجاج الإيرانيين والعراقيين. ولكن في جميع الأدوار كان من الممكن بالنسبة إلى من يسافر عن طريق الشام إلى دمشق، أن يتوجّه من هناك إلى المدينة المنوّرة، كما كان هناك طريق بحري أيضاً عن طريق الإبحار إلى بحر عمان، ويدور من هناك إلى اليمن إلى أن يصل جدّة.

في العهد الصفوي كثيراً ما كان الحجاج يسافرون عن طريق لحسا ونجد، وكانوا في بعض الحالات يسافرون عن طريق الشام. ومن ذلك مثلاً أنّ الحاج حسين علي خان ابن الشيخ علي خان زنكنه الوزير الأعظم، قد توجّه في عام ١٠٩٠هـ عن طريق الشام في قافلة تضمّ حشداً غفيراً من العجم.[١]

---

١. وقائع السنين : ٥٣٤.

وقد كتب الخاتون آبادي أيضاً أنه سافر الحج في عام ١١١٧هـ عن طريق الشام وقد استغرقت مدّة سفره خمسة عشر شهراً وثلاثة أيّام.[١]

هذا في حين أنّ أحد علماء اصفهان قد سافر إلى الحج في عام ١١٢٥هـ عن طريق لحسا؛ إنّ الطريق الأقرب الذي يسلكه الحجاج عادة هو طريق البصرة طبعاً، الذي كان يُعرف أيضاً بطريق لحسا.[٢] إنَّ السفر إلى الحج عن طريق الشام يؤشر إلى وجود مخاطر على طريق نجد، في بعض الأعوام على الأقل.

الموضوع الذي نتناوله في بحثنا هذا هو أنّ طريق نجد، الذي كان يسلكه الحجاج الإيرانيون على مدى حُقبٍ مديدة، قد تركوا السفر من خلاله منذ أوائل العهد القاجاري، وحلَّ محلّه طريق الجبل أو طريق حائل.

وللاطلاع على دواعي تغيير هذا الطريق، لابدّ لنا من إلقاء نظرة على عهدين تاريخيين؛ وهما العهد الصفوي (إلى العهد الأفشاري والزندي)، والعهد القاجاري.

وقبل كلّ شيء، لابدّ من الإشارة إلى أنّ منطقة نجد قد قيلت في وصفها أمور كثيرة، إلاّ أنّ الإيرانيين كانوا يهتمون بها بشكل عام، وأنها

---

١. وقائع السنين والأعوام : ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

٢. المصدر نفسه : ٥٦٧.

منطقة تقع بين الحجاز والعراق. بمعنى أنها بلاد شاسعة يجب أن يمرّ بها كلّ من يريد الحج من الإيرانيين.

وأما من ناحية المعنى الأدق، فإنّ كلمة نجد تعني الأرض المرتفعة. وعاصمة بلاد نجد هي الرياض. وأما المدن الأخرى فيها فهي: مدينتا «عُنيزة» و«بُريدة» من ناحية «القصيم»، ومدينة «زلفى» من ناحية «سدير»، ومدينة «شقرا» من ناحية «الوشم»، ومدينة «الدرعية» من ناحية عارض. وأما حائل أو كما يسمّيها الإيرانيون بالجبل، فهي مدينة تقع على مسافة ٦٥٠ كيلومتراً إلى الغرب من الرياض، وتبعد عن تبوك ٦٨٨ كيلومتراً.

كان الإيرانيون على مدى مرّ الأدوار والعهود الإسلامية يسلكون إلى الحج من هذا الطريق وهو الطريق المعروف باسم طريق زبيدة، ولكن مما يؤسف له أنه لا تتوفر لدينا أخبار دقيقة عن أوضاع هذه البلاد، ولا عن كيفية مسير الحجاج عن هذا الطريق. وهذه الندرة في المعلومات تنطبق على العهد الصفوي أيضاً؛ وذلك لعدم وجود كتب رحلات معروفة ومفصّلة حول هذه الأمور في هذا العهد، بل لا توجد حولها حتى أخبار أو معلومات تاريخية عادية. نشير إلى أنه لم تبق في إيران وثائق إدارية من هذا العهد، ومعنى ذلك أننا لا نملك أية معلومات في هذا المجال.

وما يوجد بين المدوّنات القليلة التي كتبها الحجاج في هذا المجال مجرّد إشارة إلى «المرور» من تلك المناطق، دون أن تزوّدنا بأية معلومات

أخرى حول تفاصيل ذلك. في حين تتوفر بين أيدينا العشرات من كتب الرحلات التي دُوّنت في العهد القاجاري وهي تقدّم لنا معلومات وافرة حول طريق الجبل. وأما بالنسبة إلى نجد ووقوعها على طريق الحج، فلها في أذهان الإيرانيين مفهوم ذو جوانب وجدانية بعيداً عن قضية الجغرافية الخارجية والبادية، التي تقع في موقع جغرافي معيّن.

وفي هذا المجال لدينا نصّان حول الجغرافية الواقعية، وحول البادية المجازية، ونرى من المناسب الإشارة إليهما هنا:

أ: كتب مؤرخ من العصر القاجاري حول حاجز وهو موضع في بادية نجد، ما يلي: حاجز بكسر الجيم يُنسب إلى حاجز وهو اسم منزل في بادية نجد ينزل فيه الحجاج. وبلاد نجد على وجه الخصوص موضع عشق ومهبط العاشقين، ولها في هذا المضمار تاريخ عريق. وقد أكثر الشعراء أيضاً من ذكر نجد وذكر المتيّمين بنجد. وحتى أنّ بهاء الدين العاملي ذكرها فيما كتبه من أشعار باللغة الفارسية، حيث قال في موضع:

باز گو از نجد و از یاران نجد تا در و دیوار را آری به وجد

حدّثني عن نجد وأحبابها حتى تهيج أشجان أطيابها.[1]

ب: عبدالرزاق الدنبلي في ما كتبه حول سفره إلى العتبات في العراق في عام ١٢١٥هـ، وأنه قد سمع هناك حكاية جاء فيها: توجهت مع

---

١. راهنمای دانشوران ١ : ١٧٧.

جماعة من أهل الوجد عن طريق نجد لزيارة بيت الله الحرام. ومن شدّة الشوق لوصال الكعبة كان أولئك المشتاقون يشعرون بأشواك حسك السعدان، و كأنه في أقدامهم ورد و ياسمين، و أزهار الأماني تنبض في رياض الذكريات، وأشواك وادي البطحاء تجتذب إليها الأفئدة.

وقال أصحابنا: إنّ في قبيلة نجد فتاة غدت قِبلة لأهل الوجد، وكأنّها في الجمال والكمال سلمى وليلى، وهي تستميل القلوب بجمالها الأخّاذ كالمغناطيس... وكان أصحابنا يسكّنون نفوسهم عن طريق الميل إلى ذلك المقام![1]

ونأتي فيما يلي على نقل الشواهد التاريخية، التي تحدثت عن مرور الحجاج الإيرانيين عن طريق نجد للوصول إلى الحجاز وأداء فريضة الحج ابتداءاً من العهد الصفوي، ثم نأتي بعد ذلك على ذكر ما جاء منها حول العهد القاجاري.

---

١. حدائق الجنان، مخطوطة مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في إيران، رقم:٩١٢، الورقة:١٧.

العهد صفوي، والأفشاري والزندي (٩٠٧هـ ـ ١٢٠٠هـ)

كما سبقت الإشارة إليه أنه في العهد الصفوي و إلى أوائل العهد القاجاري (الذي بدأ في عام ١٢١٠هـ) كان طريق الحج يمرّ من نجد، وقد كان لها من الصيت بحيث أنه عندما كان يذكر اسم نجد، تتداعى إلى الأذهان قضية الحج.

جاء في كتاب هفت اقليم (= الأقاليم السبعة) في وصف الوضع الجغرافي العام لإيران ما يلي:

... و إلى الجنوب منها بادية نجد، التي تقع على طريق مكّة...[١]

وردت في هذا المجال معلومات متناثرة بين ثنايا الكتب، ولكن لا يتوفر حتى الآن تقرير جغرافي وافٍ، أو مذكّرة مستقلة من مذكّرات رحلات الأسفار. وهذا ما يستدعي جمع ما يمكن جمعه من معلومات من المصادر الموجودة:

* هناك وثائق قليلة على شكل مكاتبات ورسائل، كُتبت من قِبل الحكومة الإيرانية إلى بعض وجوه مكّة، أو رؤساء القبائل التي تقع على طريق نجد، أو إلى حاكم البصرة أو حاكم الهويزة، وتدلّ هذه المكاتبات على أنّ الحكومة الإيرانية كانت تبدي اهتماماً لتوفير الأمن لهذا الطريق، من أجل ضمان سلامة الحجاج.

---

١. هفت اقليم (= الأقاليم السبعة)١ : ٩٤.

عدد من هذه الرسائل جاءت في المخطوطة المرقمة: ١١٦٣٩ المحفوظة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي في قم. ويُفهم من إحدى هذه الرسائل أنه بسبب الأضرار الموجودة في طريق البصرة، أغلقت الحكومة الإيرانية طريق البصرة لمدة من الزمان. وعندما أعيد فتح هذا الطريق في أعقاب الحصول على ضمانات من رؤساء قبيلة بني خالد، تلقّى الأهالي الساكنون على هذا الطريق هذا الخبر بالإستبشار. توجد ضمن هذه المجموعة رسالة تحمل عنوان: «جواب سيد فرج الله خان، والي حويزة في البشارة بفتح البصرة» جاء ذلك في الورقة: ٢٣ منه.

وكذلك جاء في الورقة: ٥٥ منه كتاب يحمل عنوان: «كتاب إلى شيخ بني خالد»حول طريق البصرة، وكُتب في قسم منه ما يلي: «... إنّ في فتح طريق البصرة يفتح لكم أبواب النصرة، وتستفيدون بذلك فوايد غزيرة، ولكم فيها منافع كثيرة، وقد رخّص من ذلك السبيل وفد حجاج بيت الله الحرام، ورهْط المعتمرين المتمتّعين بإدراك المشاعر العظام، وأذن لهم في هذه السنة وأجر من أحسن إليهم أجر من جاء بالحسنة...

وفي عهد الصفويين، كانت تسيطر على تلك المنطقة قبيلة بني خالد، التي كانت تتولى حماية مرور الحجاج وتستوفي حقّ الطريق منهم.

ومن أهمّ تلك الرسائل رسالة كان قد كتبها الشاه عباس إلى شريف مكّة حول طريق البصرة. وجاءت بعض التوضيحات حول

المشاكل التي تكتنف هذا الطريق، وطُرحت بعض المطالب بشأن ذلك. وقد جاء في قسم من هذه الرسالة ما يلي:[١]

«ثمّ المنهّى إلى جنابهم العالي، إنّ قبل ذلك بسنين وصل إلى شرايف مسامع حضّار المجلس الأعلى الخاقاني ـ ما برح محفوفًا بالنصر والتأييد السبحاني ـ أنّ قوافل الحاج والمعتمرين الآمّين لطواف بيت الله الّذي من دخله كان من الآمنين، القاصدين لزيارة رسوله سيّد المرسلين وأئمته الكرام المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ الّذين يجيئون من بلادنا المحروسة ـ حرسها الله تعالى ـ يصل إليهم في الطريق مِحَنٌ كثيرة بَدنيّة وماليّة، ويصيبهم بلايا عظيمة جسمانيّة ونفسانيّة من جهات مختلفة وطرايق شتّى. [حتّى يكون يستلب منهم اللصوص والذؤبان ثيابهم وأسلابهم وجميع ما كانوا يتمتعون، ويذرونهم بالبيداء بايدين، ويحلّونهم منزلة ما كانوا يحرّمون]. ومع ذلك، لأجل تسويف المباشرين لإمارة الحاج في الخروج وتأخيرهم في الذهاب، وبسبب توقّعات في أثناء الطريق من شؤمة سماجة الأعراب، يتفق في بعض السنين أن يفوتهم الحجّ، إذ لم يدركوا الموقفين ويرجعون (ويرجعوا) من هذه الشقّة الشاقّة خائبين بخُفَّيْ حنين. ولما كان فى مثل هذه الحال لما فيها من المخاطرة بالأنفس والأموال، الاستطاعة التي هي شرط وجوب الحج على ما قال الملك

١. الورقة ٩٢ ـ ٩٥.

المتعال مفقودة، إذ من جملتها تخلية السرب، وظاهرٌ أنها ليست حينئذ موجودة، ولم يكن الحج في هذه الصورة واجباً ولا مثل هذا السفر سائغاً، فلا جرم قد صدر عن موقف السلطنة العظمى الحكم بمنع القوافل و الوفود، وسدّ الطرائق الصدود، إمتثالاً لأمر الله، و شفقةً على خلق الله، وحماية للرعية، لا رعاية للحميّة، وفي هذه السّنة أرسل حاكم البصرة إلى خدمتنا، واستدعى من حضرتنا أن نرخص الحاجّ [و نفتح هذا الطريق] وشرط [وعرض علي أولياء دولتنا الباهرة مؤكداً بالعهود والمواثيق] أن لايؤخذ منهم من كلّ نفر سوى الجمّال والطبّاخ والبريد في الذهاب والعود جميعًا من كلّ جهة وعلةٍ، أزيد من ثلاثين أحمر نقيراً ولا قطميراً، [وأنّهم لايصيبهم ظمأٌ ولانصب ولامخمصة إلا أن يشاء الله ولايظلمون نقيراً] وأن لايدع أن يصل إليهم أذًى من الأعراب، قليلاً ولا كثيراً، وتعهّد أن يزعجهم [ينفرهم] من البصرة اليوم الأول أو الثاني من شهر ذي القعدة ولايقيمهم بعد ذلك بقدر قومة ولا قعدة. ولما كان حينئذ مظنّة أن يكون منع الحاج في هذا الحال، معاذ الله صدّاً عن سبيل الله ـ جلّ ذكره ــ ومنعاً لمساجده أن يذكر فيها اسمه، فأجبنا مسؤوله [وأسعفنا مأموله] ورخصنا الحجاج والعمّار وأنفذنا الأحكام المُطاعة والفرامين النافذة إلى خوانين [خواقين] الأطراف والأقطار بأن يجهّزوا القوافل ويسبّلوا السبائل [ويتوجّهوا] من درب [صوب] البصرة [إلى الأرض المقدّسة التي بالتهامة، بادين من كل باير وعامر، آتين رجالاً

وعلى كلّ ضامر، جائين من نائي البلاد وجابين للبوادي الصخرة الوعرة من كلّ واد] ليجيبوا الدعوة التّامّة الخليليّة ويدعو في تلك المقامات الكريمة، لدوام هذه الدولة القائمة الصفوية الإسماعيليّة.

وحيث كان خدّامكم الكرام لا يزال يسعون في رعاية الحجاج والزوّار، سيّما أهل هذه البلاد والأمصار، ويبالون جدّاً بمراقبة أحوالهم، ولايألون جهداً في محافظة أنفسهم وأموالهم، ولايتركون أن يصل إليهم أذى وظلم من أحد من الناس، ويكونون لهم بمنزلة الحَفَظةِ والحرّاس، أمرنا أن يؤخذ من كلّ رأس منهم إلا ما استثنى، خمسة حمر سوى الثلاثين المذكور، ويرسل إلى خدمتكم على سبيل النذر والهديّة، ازدياداً للمحبّة والمودّة ومجازاة للمشقّة الّتي يتحمّلها خدمتكم السنيّة.

فإذَنْ طريقة الإخلاص والصفوة التي لا يزال يسلكها تلك الزمرة الشريفة الشريفيّة بالنسبة إلى هذه السلسلة العليّة الصفويّة، أن لايقصّروا في إكرام القوافل الّتي تجيء من ظهر البصرة، وكفّ أيدي الناس عنهم ببطن مكّة، كيف وهم أضياف الله وأضيافكم، وإكرام الضيف من سنن أكارم أسلافكم، وأن لا تدعوا أحداً أن يكلّفهم بالرّجوع من طريق آخر

ويجعلهم إليه ملْجاة، إذ قد سمعنا أنّ في السّنين السابقة كان يلحقهم خسران عظيم من هذه الجهة».[1]

وتعبير: «**مِن ظَهر البصرة**» في هذه الرسالة ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ يدلّ على الطريق الذي يسلكه الحجاج الإيرانيون في الوقت الحاضر للسفر إلى مكّة.

❊ و يوجد في المخطوطة رسائل أخرى، ذكر فيها مشاكل موجودة في نفس الطريق، منها في مكتوب كتب بعنوان: «جواب مكتوب السيد الرشيد ابن الشريف سعد ابن زيد المسمى بسعيد» هكذا: «**... ثم لا يخفى على ضميره المنير وخاطره الخطير أن المحب لم يبسط في باب سماجة فلان بساط الشكاية، ولم يكشف عند أحد من أولياء الدولة القاهرة عن مساويه التي جاوزت النهاية، ولكن الحجيج الذين كانوا كالأسراء في يديه، ولم يجدوا سبيل التخلص من سوء سلوكه في الطريق، قد وثبوا عليه، فبالغوا في بث شكواه، وحالوا بينه وبين الوصول إلى ما كان يرجوه و يتمناه**».[2]

---

١. (راجع كتابي بعنوان: «سياست وفرهنگ روزگار صفوي (= السياسة والثقافة في العصر الصفوي)» ٢ : ١٥٧٧. وما في المعقوفين من نسخة أخرى غير المخطوطة، المحفوظة في مكتبة آية الله السيد المرعشى بقم).

٢. برگ = الورقة ٤٨.

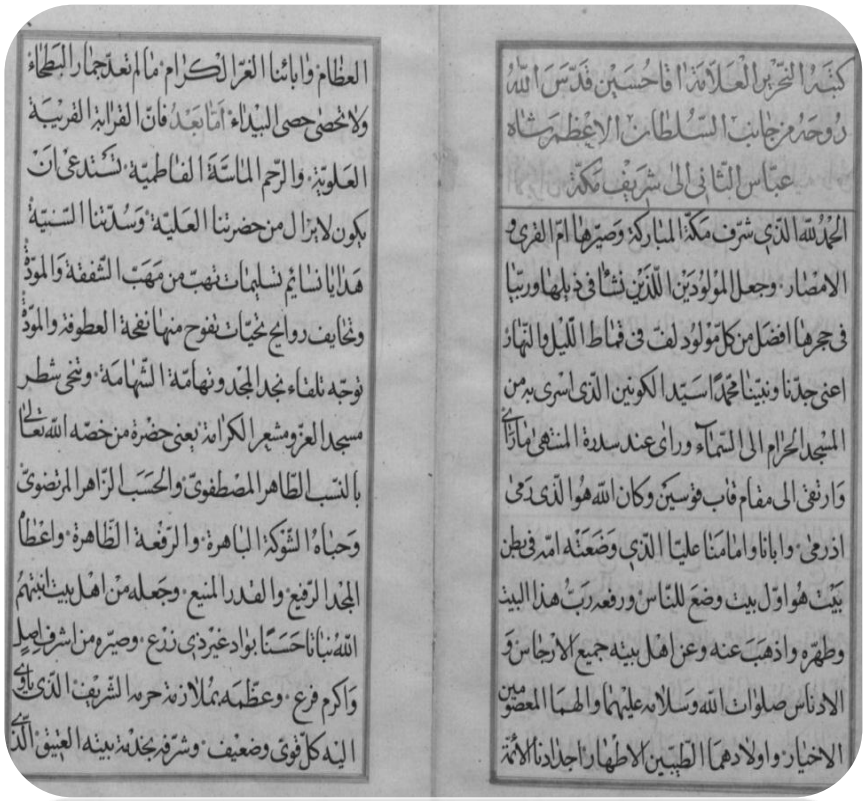

كتبه النحرير العلامة الفاضل حسين قدس الله
روحه من جانب السلطان الاعظم شاه
عباس الثاني الى شريف مكة

الحمد لله الذي شرف مكة المباركة وصيرها ام القرى و
الامصار. وجعل المولودين اللذين نشآ في ذيلها وربيا
في حجرها افضل من كل مولود لفت في قماط الليل والنهار
اعني جدنا ونبينا محمدا سيد الكونين الذي اسري به من
المسجد الحرام الى السماء ورأى عند سدرة المنتهى ما رأى
وارتقى الى مقام قاب قوسين وكان الله هو الذي رمى
اذ رمى. وابانا وامامنا عليا الذي وضعته امه في بطن
بيت هو اول بيت وضع للناس ورفعه رب هذا البيت
وطهره واذهب عنه وعن اهل بيته جميع الارجاس و
الادناس صلوات الله وسلامه عليهما والهما المعصومين
الاخيار. واولادهما الطيبين الاطهار اجدادنا الائمة
العظام وابائنا الغر الكرام ما لم تعد جمار البطحاء
ولا تحصى حصى البيداء. اما بعد فان القرابة القريبة
العلوية. والرحم الماسة الفاطمية تستدعي ان
يكون لا يزال من حضرتنا العلية وسدتنا السنية
هدايا نسائم نسلمات تهب من مهب الشفقة والمودة
وتخايف روايح تحيات تفوح منها نفحة العطوفة والمودة
توجه تلقاء نجد المجد ونهامة الشهامة. وتنحى شطر
مسجد العز ومشعر الكرامة يعني حضرة من خصه الله تعالى
بالنسب الطاهر المصطفوي والحسب الزاهر المرتضوي
وحباه الشوكة الباهرة. والرفعة الظاهرة. واعطاه
المجد الرفيع والقدر المنيع. وجعله من اهل بيت انتهم
الله بنا حسنا بواد غير ذي زرع. وصيره من اشرف اصل
واكرم فرع. وعظمه بملازمة حرمه الشريف الذي يأوي
اليه كل قوي وضعيف. وشرفه بخدمة بيته العتيق الذي

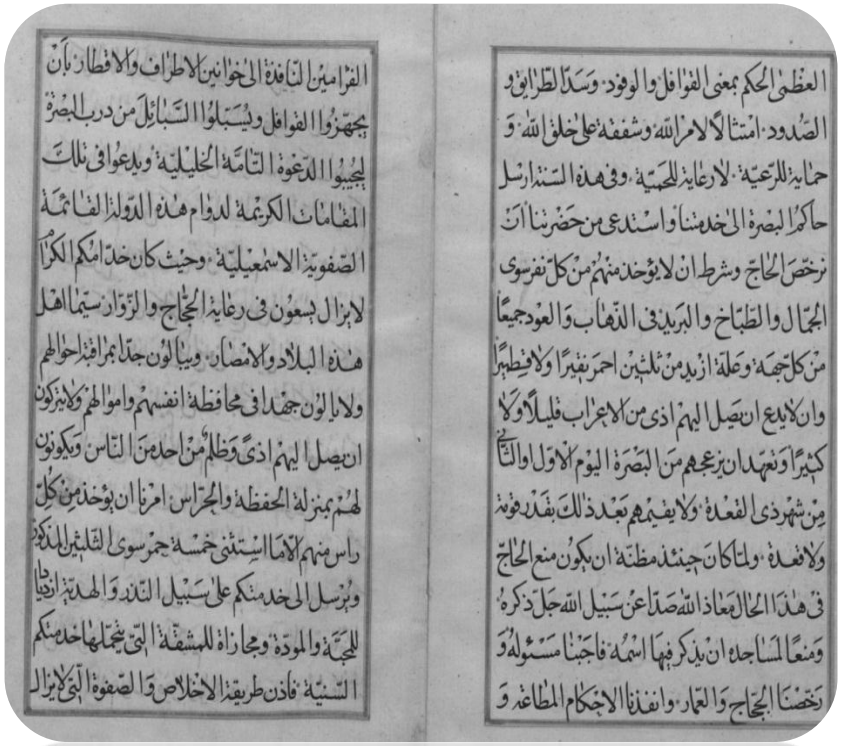

العظمى الحكم بمعنى القوافل والوفود. وسدّ الطرق
الصدود. امتثالًا لامر الله وشفقة على خلق الله. و
حماية للرعية. لا رعاية للحمية. وفي هذه السنة ارسل
حاكم البصرة الى خدمتنا واستدعى من حضرتنا ان
نرخص الحاج وشرط ان لا يؤخذ منهم من كل نفر سوى
الجمال والطباخ والبريد في الذهاب والعود جميعًا
من كل جمة وعلة ازيد من ثلثين احمر بغيرًا ولا فطيرًا
وان لا يدع ان يصل اليهم اذى من الاعراب قليلًا ولا
كثيرًا وتعهد ان يزعجهم من البصرة اليوم الاول او الثاني
من شهر ذي القعدة. ولا يقيمهم بعد ذلك بقدر قوة
ولا قعدة. ولما كان حينئذ مظنة ان يكون منع الحاج
في هذا الحال معاذ الله صدًا عن سبيل الله جل ذكره
ومنعًا لمساجده ان يذكر فيها اسمه فاجبنا مسئوله و
رخصنا الحجاج والعمار. ونفذنا الاحكام المطاعة و

القرامين النافذة الى خوانين الاطراف والاقطار بان
يجهزوا القوافل ويسبلوا السبائل من درب البصرة
ليجيبوا الدعوة التامة الخليلية ويدعوا في تلك
المقامات الكريمة لدوام هذه الدولة الفاتمة
الصفوية الاسمعيلية. وحيث كان خدامكم الكرام
لا يزالون يسعون في رعاية الحجاج والزوار سيما اهل
هذه البلاد والامصار. وبيانون جدا بمراقبة احوالهم
ولا يالون جهدا في محافظة انفسهم واموالهم ولا يتركون
ان يصل اليهم اذى وظلم من احد من الناس ويكونون
لهم بمنزلة الحفظة والحراس امرنا ان يؤخذ من كل
راس منهم الا ما استثنى خمسة حمر سوى التلثين المذكور
ويرسل الى خدمتكم على سبيل التذر والهدية ان شاء
للمحبة والمودة ومجازاة للمشقة التي يتحملها خدمتكم
السنية. فاذن طريقة الاخلاص والصفوة التي لا يزال

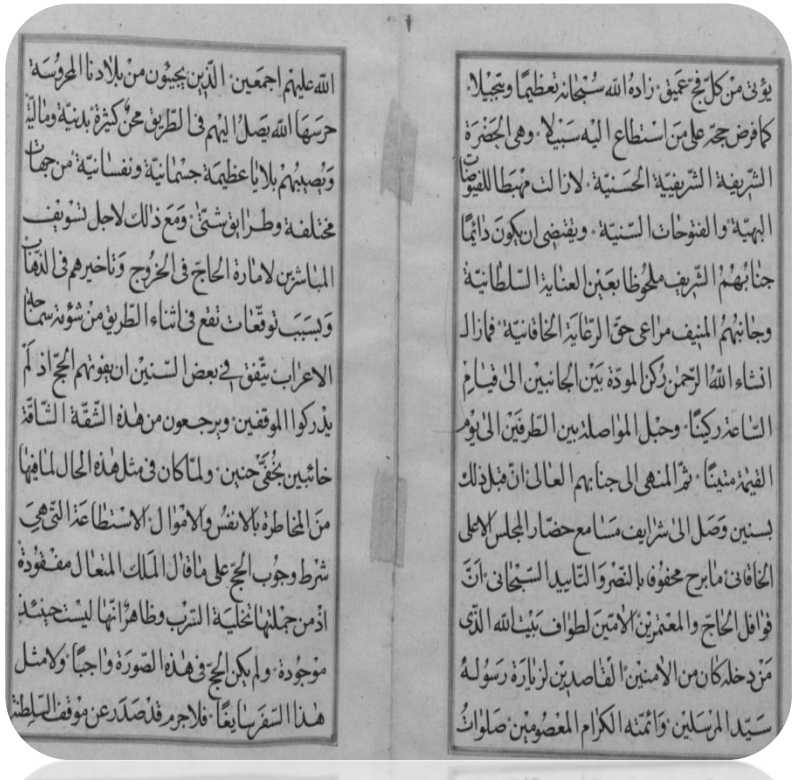

يؤتى من كل فج عميق. زاده الله سبحانه تعظيمًا وتبجيلًا.
كما فرض حجه على من استطاع اليه سبيلًا. وهي الحضرة
الشريفة الشريفية الحسنية. لازالت مهبطا للفيوضات
الإلهية والفتوحات السنية. ويقضي ان يكون دائمًا
جنابهم الشريف ملحوظا بعين العناية السلطانية
وجانبهم المنيف مراعى حق الرعاية الخاقانية. فما زال
انشاء الله الرحمن ركن المودة بين الجانبين الى قيام
الساعة ركينًا. وحبل المواصلة بين الطرفين الى يوم
القيمة متينًا. ثم المنهى الى جنابهم العالي ان مذ ذلك
بسنين وصل الى شرايف مسامع حضار المجلس الاعلى
الخاقاني ما برح محفوفا بالنصر والتاييد السبحاني ان
قوافل الحاج والمعتمرين الآمنين لطواف بيت الله الذي
من دخله كان من الآمنين القاصدين لزيارة رسوله
سيد المرسلين وائمته الكرام المعصومين صلوات
الله عليهم اجمعين. الذين يجيئون من بلادنا المحروسة
حرسها الله بصلهم اليهم في الطريق محن كثيرة بدنية ومالية
وتصيبهم بلايا عظيمة جسمانية ونفسانية من جهات
مختلفة وطرا بعضها بعض. ومع ذلك لاجل تشوف
المباشرين لامارة الحاج في الخروج وتاخيرهم في الذهاب
وبسبب توقعات تقع في اثناء الطريق من شوكة سماحة
الاعراب يتفق في بعض السنين ان يفوتهم الحج اذ لم
يدركوا الموقفين ويرجعون من هذه الشقة الشاقة
خائبين يخجلون حنين. ولما كان في مثل هذه الحال لما فيها
من المخاطرة بالانفس والاموال. الاستطاعة التي هي
شرط وجوب الحج على ما قال الملك المتعال مفقودة
اذ من جملتها تخلية السرب وظاهر انها ليست حينئذ
موجودة. ولم يكن الحج في هذه الصورة واجبًا. ولامثل
هذا السفر سايغًا. فلا جرم قد صدر عن موقف السلطنة

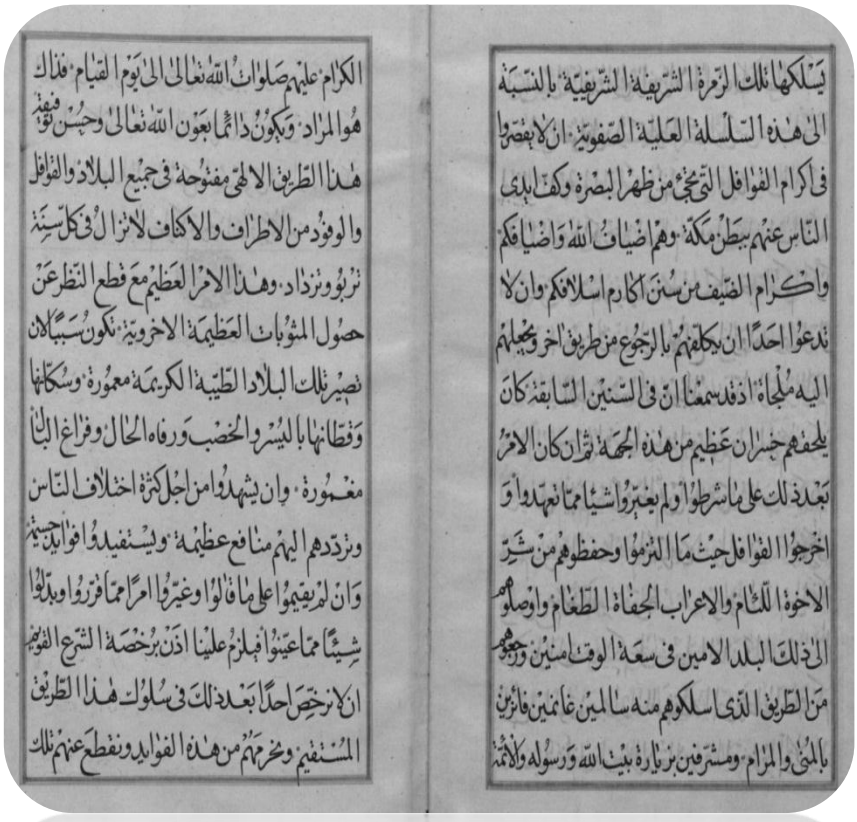

يسلكها تلك الزمرة الشريفة الشريفية بالنسبة
الى هذه السلسلة العلية الصفوية ان لا يقصروا
فى اكرام القوافل التى تجئ من ظهر البصرة وكف ايدى
الناس عنهم ببطن مكة وهم اضياف الله واضيافكم
واكرام الضيف من سنن اكارم اسلافكم وان لا
تدعوا احدا ان يكلفهم بالرجوع من طريق اخر ويحملهم
اليه ملجاة اذ قد سمعنا ان فى السنين السابقة كان
يلحقهم خسران عظيم من هذه الجهة ثم ان كان الامر
بعد ذلك على ما شرطوا ولم يغيروا شيئا مما تعهدوا و
اخرجوا القوافل حيث ما التزموا وحفظوهم من شر
الاخوة اللئام والاعراب الجفاة الطغام واوصلوهم
الى ذلك البلد الامين فى سعة الوقت امنين ورجعوهم
من الطريق الذى سلكوهم منه سالمين غانمين فائزين
بالمنى والمرام ومشرفين بزيارة بيت الله ورسوله والائمة
الكرام عليهم صلوات الله تعالى الى يوم القيام فذاك
هو المراد ويكون دائما بعون الله تعالى وحسن توفيقه
هذا الطريق الالهى مفتوحة فى جميع البلاد والقوافل
والوفود من الاطراف والاكناف لانزال فى كل سنة
تربو وتزداد وهذا الامر العظيم مع قطع النظر عن
حصول المثوبات العظيمة الاخروية تكون سببا لان
تصير تلك البلاد الطيبة الكريمة معمورة وسكانها
وقطانها بالليسر والخصب ورفاه الحال وفراغ البال
مغمورة وان يشهدوا من اجل كثرة اختلاف الناس
وتردهم اليهم منافع عظيمة ويستفيدوا فوائد جسيمة
وان لم يقيموا على ما قالوا وغيروا امرا مما قرروا وبدلوا
شيئا مما عينوا فلزم علينا اذن برخصة الشرع القويم
ان لا نرخص احدا بعد ذلك فى سلوك هذا الطريق
المستقيم ونحرمهم من هذه الفوائد ونقطع عنهم تلك

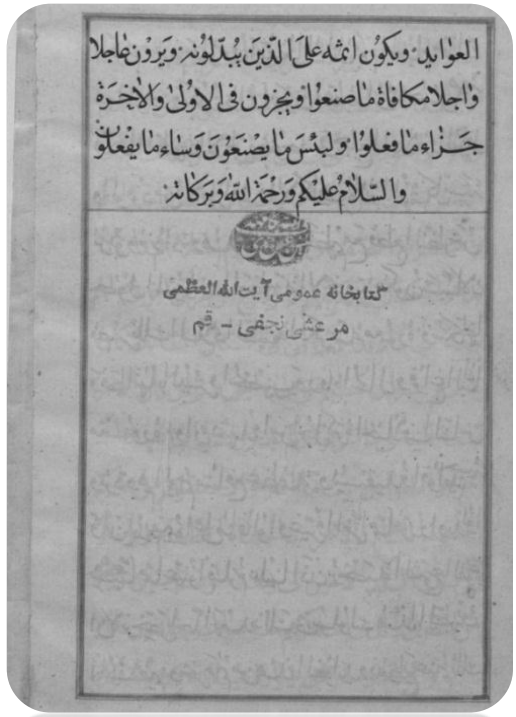
العوايد. ويكون اثمه على الذين يبدلونه. ويرون عاجلا
واجلا مكافاة ما صنعوا ويجزون في الاولى والاخرة
جزاء ما فعلوا. وليس ما يصنعون وساء ما يفعلون
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
كتابخانه عمومى آيت الله العظمى
مرعشى نجفى - قم

* وفي رسالة أخرى كتب بعنوان: «كتاب مرقوم إلى بعض فضلاء الأحباب» هكذا: ... «وبعد طيّ وادي السلام، وبسط صحايف الشوق والعزام، فالمرتسم في مرايا معلوماته، ومشاعر مدركاته، أنه قد رخص لوفد الحجيج من طريق البصرة ليطوفوا بالبيت العتيق، وأذن في الناس بالحج يأتوه رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كلّ فجٍّ عميق، وهم أضياف الله تعالى، و أبناء سبيله وعباده المكرمون، الأحقّاء بعظيم الإكرام

وجليله، فالمأمول من لطائف لطف ذلك الجناب وإكرامه وشرايف سعيه واهتمامه أن يكرم مثواهم، ويحسن مقرهم ومأواهم، ويبالغ في إجلالهم، ويحترمهم احتراماً يليق بأمثالهم».[1]

* وأيضاً في رسالة أخرى بعنوان: «أيضاً كتاب إلى شيخ بني خالد» ورد هكذا: «.... وبعد نشر صحيفة الدعاء وبسط بساط شوق اللقاء، فلا يخفى على مرآة ذلك الضمير المنير، أنّ في فتح طريق البصرة، يفتح لكم أبواب النصرة، وتستفيدون بذلك فوائد غزيرة، ولكم فيها منافع كثيرة، وقد رخص من ذلك السبيل وفد حجّاج بيت الله الحرام، ورهط المعتمرين المتمتّعين بإدراك المشاعر العظام، وأذن لهم في هذه السنة، وأجر من أحسن إليهم أجر من جاء بالحسنة، وقد خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله جمع كثير وجمّ غفير راجياً للظفر بمأموله، ولقد حاولوا بسرعة الحركة عوائد الاشتياق إلى الخير والبركة، فبادروا إليها عجالاً، ونفروا خفافاً وثقالاً، فينبغي لكم الخروج من عهدة العهود والمواثيق المؤكدة بغلائظ الأيمان، والدخول بذلك في زمرة الذين سارعوا إلى مغفرة من ربهم ورضوان، بأن تحرموا للسعي في سبيل الله على وجه يليق، وتحرسوا سالكيه الآتين رجالاً وعلى كل فجّ عميق، لئلا يصيروا طعمة لكل ذئب مفترس، ونهبة لكل لصّ مختلس، فلايستطيعون لهم نصراً

---

١. برگ = الورقة ٥٥.

ولايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً. فليكن اغتناؤكم بذلك جميلاً، والاهتمام بما فيه صلاح أحوالكم ونجاح آمالكم ضامناً وكفيلاً».[١]

* كتب مسافر أجنبي [من فرنسا] كان يومذاك في بلاط الشاه عباس الثاني (١٠٥٢ ـ ١٠٧٧هـ) عن مقاطعة الحكومة الإيرانية لطريق البصرة، ومنعها الحجاج من السفر على هذا الطريق؛ وذلك بسبب المشاكل التي كان يواجهها الحجاج فيه، وتحدّث عن ذلك بالتفصيل. وكتب حول ذلك ما يلي:

«جاء مبعوث ذو هيبة من قبل حاكم البصرة إلى اصفهان للتعبير عن التقارب والوحدة والتصالح. وكان برفقته شخص مهم اسمه المير حاجي أو أمير الحاج.[٢] وكانت الغاية من مجيء هذين الرجلين إلى العاصمة الإيرانية هي أن يطلبوا من الشاه إلغاء الأمر الذي أصدره بمنع سفر الحجاج الإيرانيين عن طريق البصرة. إذ أنّ هذا القرار قد أدّى إلى حرمان أهالي البصرة من عائدات كثيرة كانت تدرّ عليهم من مرور الحجاج الإيرانيين من هناك؛ إذ لم تمض مدّة طويلة حتى اثر نقصان تلك العائدات الهائلة في حياة عموم أهل البصرة وأوقعهم في ضيق وصعوبة. قبل هذا القرار كان ما يقارب عشرة آلاف شخص يتشرّفون بالذهاب

---

١. برگ= الورقة ٥٦ ـ ٥٧.

٢ . كلمة «أمير الحاج» لقب يُطلق على رؤساء القوافل الكبرى التي تسير تذهب إلى زيارة بيت الله...

إلى مكّة عن طريق البصرة، ولكن منذ بضعة (بضع) سنوات صاروا يسلكون طريقاً آخر. وقد كتب حاكم البصرة في الرسالة التي بعثها مع هذين إلى البلاط الإيراني إنه قد عاقب بشدّة الأشخاص المسيئين الذين تسبّبوا في إيذاء ومضايقة الحجاج الإيرانيين، وإنه قد وفّر جميع مستلزمات الرفاهية والراحة والرضا للزائرين الإيرانيين، الذين يمرّون عن طريق البصرة. وأنهم يستطيعون منذ الآن فصاعداً الذهاب إلى زيارة مكّة المكرمة عن هذا الطريق، وهم مرتاحي (مرتاحو) البال بعيداً عن أي قلق من دفع ضرائب باهضة، أو أية نوع آخر من المضايقات. وقدّم أمير الحاج عهداً بأن لا يكون لدى أي من الزائرين الإيرانيين من الآن فصاعداً أي شكوى ولا تذمّر من عمّال البصرة. وقد أصرّ كثيراً على طلبه هذا حتى استجيب لطلبه. ومن بعد ذلك نُصبت خيمة واسعة في السوق القديم للمدينة، وأعلنوا أنّ كلّ من يريد زيارة بيت الله سواء من النساء أم الرجال أن يأتي إلى هناك ويسجّل اسمه، وأنه يوفّر له مستلزمات السفر بتكلفة ليست بالكثيرة جداً».[1]

* هناك وصف مثير للانتباه لطريق نجد ومقارنته مع طريق الشام في العهد الصفوي، كتبه المير محمد سعيد مشيزي ويعود إلى عام ١٠٨٩هـ. كان المير محمد سعيد يعيش في كرمان في جنوب ايران، وقد سافر إلى

---

١. رحلة (سفرنامه) شاردن الفرنسي: المترجم بالفارسية٢ : ٦١٦.

الحج عن طريق البحر.[١] وبعد أداء مناسك الحج كان متردداً بين أن يعود إلى بلاده عن طريق الشام أو عن طريق نجد، ولكن في ختام المطاف قرر العودة عن طريق الشام؛ لأنه طريق معمور تماماً، غير أنّ جماعة آخرين لم يوافقوه الرأي، وقالوا: إنّ طريق لحسا أقرب إلى الوطن. واحتجّ البعض بصعوبة طريق الشام، بينما تحدّث البعض الآخر منهم حول سوء معاملة عرب البادية وأمير الحاج اللحسائي.

وفي نهاية الأمر قرروا العودة عن طريق لحسا. وقد كتب المير محمد سعيد مشيزي الذي اختار طريق لحسا، حول عودته وما واجهه خلالها من مصائب ومتاعب: الفقير الحقير محمد سعيد، توجّه مع أمير الحاج إلى لحسا ووصل كرمان عن طريق شيراز.[٢]

* لدينا تقرير واضح حول طريق الحج الذي كان يسلكه الإيرانيون منذ عام ١٠١٧هـ. وقد كتبه شخص اسمه ملك شاه حسين ابن غياث الدين في كتاب له تحت عنوان «إحياء الملوك» ويدور موضوع التقرير حول سفره إلى الحج. ووفقاً لما كُتب في هذا الكتاب فإنّ ملك شاه حسين كان في غرّة جمادى الأولى من عام ١٠١٧هـ في الثامنة والثلاثين من العمر. وقد توجّه من «حديقة مؤمن آباد زيارتگاه» إلى بلاد الحجاز لزيارة الحرمين الشريفين، ووصل إلى شيراز عن طريق بهره وبم

---

١. التذكرة الصفوية : ٤٦٨.

٢. التذكرة الصفوية : ٤٧٦ ـ ٤٧٩.

ونيريز... ومن شيراز وصل إلى شطّ الكارون عن طريق دورق إلى شعب بوان وفهليان وشولستان وبهبهان. ومن هناك دخل إلى شط العرب والبصرة.

وفي الثامن من ذي القعدة وصل إلى بلاد الحجاز عن طريق بادية نجد. ووصل إلى الميقات في الموعد المقرر وارتدى ثياب الاحرام، وفي صباح التاسع من ذي الحجة وضع قدمه في أرض الحرم، وانهمك على مدى ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة بالزيارة والإحياء في مكّة. وتوجّه من هناك إلى المدينة ووصلها بعد عشرة أيّام ومكث فيها أسبوعاً. وقد أحيي ليلة الجمعة في السابع عشر من المحرّم، وغادر الروضة الشريفة في صباح اليوم التالي وضع قدمه على طريق نجد. واجتاز الوديان الواحد تلو الآخر إلى أن وصل إلى ديار قيس وليلى. ووصل من هناك إلى البصرة، ومن البصرة إلى «ميناء ريگ» وقطع هذا الطريق البحري على مدى ثلاثة أيّام وأربعة (وأربع) ليال. ومن «ميناء ريگ» انطلق على طريق دشتستان وبعد أن قطع الكثير من المرتفعات والمنخفضات وصل إلى كازرون. ومن بعد كازرون دخل شيراز. ومن شيراز توجّه إلى كرمان. ثم إنه انتقل إلى الموضع الأحمر بعد اجتيازه لطريق التل الأحمر «كتل سرخ»، ومن هناك

وصل إلى بَم، ثم عن طريق وادي ذئب «بيابان گرگ» عاد إلى سيستان، وفي يوم العاشر من جمادى الأولى من عام ١٠١٨هـ وصل إلى سيستان.[١]

أمّا نص عبارة ملك شاه حسين فهي كالآتي:

«ومن هناك قطعتُ المسافات بين المنازل الواحد تلو الآخر، إلى أن وضعتُ قدمي على ساحل شطّ الكارون... وعبرت قلعة بارزة «قلعة معتبر» التي كان بجوارها شطّ، ووصلت من ذلك الشطّ إلى شطّ العرب... واسترحت بضعة أيّام في البصرة، ومن بعد المكوث عدّة أيّام في تلك البلدة... وفي الثامن من ذي القعدة سرنا في البادية، ووصلنا إلى نجد وأصبحنا في وجد، وتكرّمت الجباه بالسجود على أرض الحجاز، إلى أن حان الموعد المقرر للميقات، فأحرم... وفي التاسع من ذي الحجة وصل صباحاً إلى أرض الحرم؛ فأخذ نعليه بيديه وسار حافياً، والعين ملؤها الحسرات، تلك الكرامة لا تستسيغ النعلين، ففعلت ما عليها فعله، إلى أن وصلت إلى مصاف ذلك المطاف، وبلغتُ ما كنت ابتغيه. في ذلك اليوم نلت الإذن بالسجود، واغتنمت الفرصة، وأديت المناسك في الكعبة. وبعد الانتهاء من أداء مناسك حج التمتّع والعمرة، فوفقت للسعي من الصفا إلى المروة ومن المروة إلى الصفا. ثم بعد ذلك حظيت بالذهاب إلى مِنى، وذهبت إلى عرفات وجلست عند عرفات. كان بدني منهكاً ولكنه

١. إحياء الملوك، المقدمة : ٣١.

استشعر القوّة بعد السجود في مسجد الثمرة (النمرة) وخيف. وجمعت حصيات جمرة العقبة لرمي الشيطان الرجيم، وصررتها في ذيل قطعة قماش من القطيفة، وبعدها يممتُ وجهي صوب منى، فرأيت القرابين...؛ وبعد أيام التشريق والفراغ من الجمرة الأولى والوسطى وجمرة العقبة سرت إلى بلد مكّة المبارك الذي «من وصله (دخله) كان آمناً»، حيث لم أخش من ذهاب النفس والبدن، وبقيت هناك ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة أواصل الزيارة والإحياء... وقد دفعني الشوق إلى المدينة إلى توديع الكعبة؛ فطفت طواف الوداع وبما أنني كنت قد دخلت من باب السلام، فقد خرجت من باب المدينة، وجئت إلى وادي فاطمة... ثم بعد عشرة أيّام وصلت إلى المدينة المنوّرة، نلت السعادة هناك بزيارة رسول الثقلين، وجعلت زادي لدنياي وآخرتي زيارة أئمة البقيع وسائر الساكنين في تلك البقعة الرفيعة.

واكتست روحي بنور الإيمان بالزيارة والسجود في مسجد قُبا، ومسجد علي ومسجد فاطمة، ومسجد بني النجار وغيرها من المساجد الأخرى. ومكثت في المدينة أسبوعاً، وأحْييت هناك بعض الليالي، وأحييت ليلة الجمعة السابع عشر من شهر محرّم، وفي صباح تلك الليلة ودّعت تلك الروضة البهية متوجهاً إلى طريق نجد. وكان سبب خروجي مبكراً من هناك هو أنّ أهالي مصر والشام كانت في قلوبهم أحقاد على أهل العجم، ولكنهم ما كانوا يجرأون على النزاع في أرض الحرم. وفي

الأيّام التي كانوا فيها في المدينة، كانوا على الدوام يفكّرون في الجدال. وكان خدّام وسادات تلك العتبة يحثّون أهل العجم ويشجعونهم على المغادرة، فحُرِم (فحرمتُ أو فحرمنا) من تلك الهِبة...

وخلاصة الكلام أنّ القافلة كانت تجدّ السير يوماً بعد يوم، وتقطع وادٍ بعد وادٍ إلى أن وصلت إلى ديار قيس وليلى. ومررنا بالطائف كانت جبال وأطلال، وحيثما ذهبنا كانت قلاع وقرى. وبدا لي من بين الأطلال حائط مهدوم، وقال العرب هناك أنّ هذه كانت دار ليلى.[1] حبّ ليلى الذي كان يشغل باله، قد أثقل على كاهل هذا المجنون في وادي العشق، وكأنه ذرى على جرحه الملح، ووصلت إلى قرية من قرى نجد... وتمّ اجتياز تلك البادية خلال مدّة وجيزة بحمد الله؛ وألقت القافلة رحالها في البصرة. ومن البصرة جئت عن طريق الباخرة إلى (بندر ريگ) ميناء ريگ».[2]

❊ وجاءت معلومة أخرى حول مسير الحجاج عن طريق نجد في العهد الصفوي، وذلك في كتاب «خلاصة التواريخ» وهو من تأليف أحمد بن المير منشي القمي المتوفى عام ١٠١٥هـ، الذي ذكر حول سفر أحد السادات من أهالي كرمان إلى حج بيت الله الحرام، حيث قال ما يلي:

---

١. كتاب «رحلة ناصر خسرو» : ١٠٤.

٢. إحياء الملوك : ٤٨٠ ـ ٤٨١.

«كان أول سفر غادر فيه دار كرمان هو سفره إلى زيارة المشهد المقدّس [في خراسان] وكان ذلك في شهور سنة اثنين (اثنتين) وسبعين وستمائة ٩٧٢هـ؛ حيث حظي بزيارة تلك البقعة المشرّفة، وبعد ذلك بدأ بإعداد مقدمات السفر لحج بيت الله الحرام، وأخذ يتأهب لزيارة الحرمين الشريفين ـ زادهما الله شرفاً وتعظيماً ـ ولزيارة المشاهد المقدّسة؛ فتوجّه في شهور سنة ٩٧٥هـ نحو كاشان وسار منها على طريق همدان، حتى وصل إلى العتبات المقدّسة. وفي الأوّل من شهر ذي القعدة من ذلك العام حزم أمتعة السفر مع سائر الحجاج؛ وانطلق من النجف الأشرف سالكاً الطريق نحو بادية نجد قاصداً كعبة الآمال، وقد فاز بتلك السعادة. ومن بعد زيارة ضريح رسول الله ـ صلى‌الله عليه وآله ـ و أضرحة أئمة البقيع ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ عاد من ذلك الطريق الذي سلكه في الذهاب. ومكث أيّام المحرّم في كربلاء؛ وعاد من طريق همدان نحو كاشان ومن بعدها إلى يزد ثمّ كرمان. وفي بلدة خبيص انهمك بالطاعة والعبادة والقراءة».[1]

من يسافر على هذا الطريق من عراق العجم أو عراق العرب، أكثر ما يتوجّه نحو الجنوب، أي يسير نحو البصرة ويسير من هناك إلى نجد. ومن الأمثلة على ذلك السفر الذي قام به عالم عربي كان مقيماً في

---

١. خلاصة التواريخ ٢ : ٨١١.

اصفهان حيث قال إنه عندما أراد الذهاب إلى مكّة، إنطلق من اصفهان صوب البصرة، ومن هناك ذهب إلى مكّة.[١]

* هذه الحكاية جاءت أيضاً في كتاب الدر المنثور نقلاً عن مؤلف شيعي عربي يسكن في إيران في العهد الصفوي، حيث كتب فيها ما يلي: رأى رجل في طريق مكة امرأة فتبعها، فقالت: مالك؟ قال: قد سلب حبُك قلبي. قالت: فلو رأيت أختي؟ فالتفت فلم يرَ أحداً. فقالت: أيها الكاذب في دعواه، لو صدقتَ ما التفتّ![٢]

* وكتب الشيخ أحمد بن الحسن بن علي بن محمد الحرّ العاملي في كتاب الدر المسلوك ما يلي:

«وفي سنة سبع وثمانين وألف أخذت الأعراب حجاج العجم، في طريق لحسا بعد ما حجّوا، وفقد منهم خلق كثير، وكان في من فقد، أخي الأصغر الشيخ علي وسلم أخي الأكبر الشيخ محمد، وكان قد مضى على طريق البحرين ومعه ابن ملا خليل القزويني الأخباري وجماعة، ونظم قصيدة مطلعها: «ركبنا منون البحر في لجة الأسرى»ـ الأبيات».[٣]

* طريق البصرة، وهو الطريق الذي كان يُعرف أيضاً باسم طريق لحسا، وكان هذا الطريق يسلكه الحجاج في العهد الأفشاري أيضاً. وكما

١. الدر المنثور ٢ : ٧٠٧.

٢. المصدر نفسه ١ : ٣١٤.

٣. الفوائد الرضوية ١ : ٤٦٢.

جاء في نصّ المعاهدة التي أُبرمت في بين نادر شاه أفشار ١١٦٠م والسلطان العثماني في ذلك الوقت، حيث تمّ الاتّفاق على أن تصدر الدولة العثمانية أوامر لإرسال ما يكفي من الجيش والحماية لمرافقة قوافل الحجاج الإيرانيين على طريق لحسا والنجف، بحيث يوصلوهم (يوصلونهم) إلى مكّة المعظّمة بأمن وأمان، على شرط أن يكون لرئيسهم لقب غير أمير الحاج.[١]

استبدال طريق نجد بطريق حائل في العهد القاجاري

وفقاً للمعطيات الجغرافية، فإنّ الجبل ونجد منطقتان معزولتان كلّ واحدة منهما عن الأخرى، ولكن نظراً إلى شهرة اسم نجد ومسير الحجاج على طريقها منذ زمن بعيد، لذلك أصبحت هذه التسمية تطلق في كتب الرحلات الإيرانية حتى على منطقة جبل شمّر.

وهذا ما أشارت إليه إحدى رحلات السفر المنظومة شعراً في العهد القاجاري، ويعود تاريخها إلى عام ١٢٦٠هـ، وقد نُظّمت من قبل شخص سافر في تلك الأثناء إلى حج بيت الله.[٢]

ومع ذلك فإنّ المعروف أنّ هاتين المنطقتين منفصلتان كل واحدة منهما عن الأخرى.

---

١. تاريخ امپراطوري عثماني ٤ : ٣٢١٨.

٢. خمسون رحلة قاجارية في الحج = پنجاه سفرنامه حج قاجاري ١ : ٥٥٨.

كانت أهمّ قضية تشغل بال قوافل الحج هي قضية الأمن على الطريق. وبالإضافة إلى أهمية هذه القضية بالنسبة إلى الحجاج فإنها كانت أيضاً موضع اهتمام وقلق ثلاث جهات أخرى، وهي الحكومة العثمانية، والحكومة الإيرانية، ورؤساء القبائل التي كانت قوافل الحجاج تمرّ في مضاربها، ومن كانت في أيديهم الحكومات المحلية يومذاك.

وللاطلاع على الظروف السياسية التي أدّت إلى تغيير مسار طريق الحجاج من نجد إلى حائل، لابد من تقديم نبذة عن علاقة الحكومة الإيرانية مع حكومة نجد على مدى العقود الثلاثة الأولى من القرن الثالث عشر للهجرة.

إنّ امتداد سلطة حكومة نجد إلى منطقة الأحساء في عام ١٢٠٨هـ، أدّى إلى إثارة قضية العلاقات السياسية مع إيران. وكان من دواعي إثارة هذه القضية هي الحدود المشتركة مع إيران عن طريق البحر من جهة، إضافة إلى قضية المذهب المشترك بين عدد كبير من أهالي الأحساء وإيران، حيث كانت هذه القضية موضع اهتمام إيران طبعاً. وبعد مدّة أصبحت منطقة الحجاز تحت سيطرة حكومة نجد أيضاً. وهذا ما كان يفرض على إيران الدخول في جهود سياسية جديدة بسبب ما يستدعيه أمر الحج وأمن الحجاج.

كما قد أدى امتداد المعارك إلى العراق وإلى مدن البصرة والنجف وخاصة الهجوم العنيف على كربلاء في عام ١٢١٦هـ [الذي قُتل فيه

خمسة آلاف شخص] دخلت إيران في بحث قضية نجد، وقد استمرت هذه الهجمات من عام ١٢١٤هـ إلى عام ١٢٢٥هـ.[١]

وفي سنة ١٢١٧هـ بعث فتحعلي شاه رسالة مطولة إلى حكومة نجد، وعبّر فيها عن استيائه الشديد للهجوم على كربلاء.[٢]

أدّى مجموع هذه القضايا والوقائع إلى أن تجري مراسلات بين الحكومة الإيرانية ودولة نجد إلى عام ١٢٣٣هـ حيث سقطت تلك الدولة على يد الجيش الذي بعثه محمدعلي باشا بقيادة ابنه إبراهيم باشا.

خلال هذه المدّة (أي٢٥سنة)، التي استمرّت من عام ١٢٠٨هـ إلى عام ١٢٣٣هـ حيث كانت هناك قضية اسمها العلاقات بين إيران ونجد، إذا استثنينا منها الجوانب الأخرى، كان لها تأثير واضح على قضايا الحج والحجاج الإيرانيين وقوافل الحج والطرق التي تسلكها، وهذا هو موضع بحثنا هنا.

من المعروف أنّ عبدالعزيز بن محمد بن سعود كان يحكم دولة نجد من عام ١١٧٩هـ إلى عام ١٢١٨هـ وهو العام الذي قُتِل فيه. وكان ابنه سعود حيّاً إلى عام ١١٢٩هـ وهذا هو الشخص الذي ذُكِر في المصادر الإيرانية وكانت له مكاتبات مع الحكومة الإيرانية. فهو الذي بعث رسالة إلى فتحعلي شاه شرح فيها مبادئ المذهب الذي يحظى بدعم حكومة

---

١. عنوان المجد١ : ١٢٣ـ١٢٤.

٢. ناسخ التواريخ ١ : ١٢٠ طبعة المطبعة الإسلامية، نقلاً عن تاريخيات :١٩٠.

نجد، ودعاه فيها إلى التوحيد. النصّ العربي لهذه الرسالة غير موجود، وأما نصّها الفارسي فقد أورده الميرزا أبوطالب في كتابه المطبوع تحت عنوان: «مسير طالبي»، ص ٤١٢، وهو كالآتي:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد العزيز أمير المسلمين إلى فتحعلي شاه ملك العجم: بما أنّ الشرك وعبادة الأوثان قد انتشرا في الأمّة بعد رسول الله، مثلما هو الحال بالنسبة إلى أهالي كربلاء والنجف الذين يسجدون لقبور صنعوها من الحجر والطين ويطلبون منها حاجاتهم. وهذا أضعف عباد الله؛ لأنه يعلم أنّ سيدنا علي (علياً) وسيّدنا الحسين لا يرضيان بهذه الأفعال. فنحن قد عقدنا العزم على تنقية الدين المبين، وبتوفيق الله طهّرنا نواحي نجد وأكثر بلاد العرب من الرجس.

إنّ خدمة وسكنة كربلاء والنجف بما تسوّل لهم أنفسهم لا يمتنعون عن هذه المنكرات، ولهذا فإنّ الخير والصلاح إبادتهم والقضاء عليهم. وبناءاً على ذلك أرسلنا فوجاً من الغزات إلى كربلاء لأجل أن ينالوا جزاء أفعالهم القبيحة. وإذا كان ملك العجم على هذه العقيدة أيضاً عليه أن يتوب منها؛ لأنّ كلّ من يصرّ على الشرك والكفر سيصيبه ما أصاب أهل كربلاء. والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب فتحعلى شاه، شاه ايران رسالة فى جواب ما كتبه سعود ابن عبدالعزيز، وتصوير الجواب على ما جاء في كتاب «گنجينه نشاط»؛ و كتاب تاريخيات:

«تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير. وبعد: فقد أتانا منك كتاب مصدق لساناً عربياً تضوع منه عرف المعارف منتشراً ومطوياً. والعجب ثمّ العجب أنك دعوتنا إلى التوحيد ونفي الشريك عن الله الحميد المجيد، ونحن بين يديه مفطورون عليه، نحدث به قديماً وأنّ هذا صراطي مستقيماً. نعم وجد أولياؤنا كتابك دليلاً على أنك قد أخذت في هذا الطريق سبيلاً إذاً لاتخذوك خليلاً، ولا تجد لسنتنا تحويلاً، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، وعزّ من قال:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

وقد ذكرتم أنكم ترسلون عالماً منكم إلينا لنطلع عليكم، وتطلعوا على ما لدينا، وليكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا، فأرسلوه من لديكم إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخوتكم وعملوا (عجّلوا) فيه فإنما المعروض على حضرتنا من مذهبكم غير ما تكتبون والناس من عندهم يقولون ويسمعون، وإن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

٢٥٦

بسعود وهابی فرمانروای نجد وحجاز مرقوم شد

تبارک الذی بیده الملک وهو علی کل شیئ قدیر وبعد فقد اتانا منک کتاب مصدق لسانا عرفنا بما تضوع منه عرف المعارف مشاما وطوبا لک والعجب ثم العجب انک تدعو الی التوحید وتنفی الشریک عن الله الحمید المجید وتحثّ من یدینه بفطورون علیه یحدث به قدیما وان هذا لصراط علی مستقیما نعم وجد اولیاءنا کتابک دلیلا علی انک قد اخذت فی هذا الطریق سبیلا اذا لاتخذوک خلیلا ولا تجدوا لستنتا تحویلا والمؤمنون بعضهم اولیاء بعض وعزمن قال بطنا اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقد ذکرتم انکم ترسلون عالما منکم الینا لنطلع علیکم ونطلعوا علی ما لدینا ولیکون لکم مالنا وعلیکم ما علینا فارسلوه من لدیکم اتما المؤمنون اخوة فاصلحوا بین اخوتکم واعلموا فیه فانما المعوض علی حضرتنا من مذهبکم غیبا تکتبون والناس من عندهم یقولون ویسمعون وان متبعون الا نفق وانتم الا تخرصون ثم استعجلوا حتی ینکشف من امرکم الحجاب ویرتفع الارتیاب وظل المسلمون فی ظل الوداد ونحن الموحدون ولا یلیق بنا الا الاتحاد فیا حبذا ان صحت الاعلام واتفقت منا ومنکم الاقوام ولو انفقت ما فی الارض جمیعا ما الفت بین قلوبهم ولکن الله الف بینهم انه عزیز حکیم ان الله ربی وربکم فاعبدوه هذا صراط مستقیم وان کان الامر کذا فهذا اتفاق المسلمین وکان حقا علینا نصر المؤمنین بمدکم بموالین موقعین علی شبل الخلافة ذمن له علی سوالح العنان قدره وشرفه حسینعلی میرزا ان یعاملکم بالمودة متراوجهرا ویمدکم بما تستمدونه تترا وجهرا ان الله سخر لنا الاصطاد وبر لنا البحار وهو الذی یسیرکم فی البر والبحر انه علی ما یشاء قدیر والحمد لله علی ما بدا ولاه والسلام

جواب ذریعه پادشاه یمن

ادام الله عزه واقام نصره ومتع به المسلمین والده لنصر الدین فانه وصل الی حضرتنا کتابک احسن الله تعالی ما بک مبتدئا بتحمید الله الحمید ومتجددا رسول الله المجید حاویا حالات تلک سحقوا

ثم استعجلوا حتى ينكشف من أمركم الحجاب، ويرتفع الارتياب وظلّ المسلمون في ظلّ الوداد ونحن الموحّدون. ولايليق بنا إلاّ الإتحاد فيا حبّذا إن صحّت الإعلام، واتفقت منا ومنكم الأقوام ولو أنفقت مافي

الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكنّ الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم، إنّ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، وإن كان الأمر كذا فهذا اتفاق المسلمين، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، نمدكم بأموال وبنين، وموقعين على شبل هزبر الخلافة، ومن له على سواحل العمان قدرة وشرافة، حسينعلي ميرزا أن يعاملكم بالمودة سراً وجهراً ويمدكم بما تستمدونه براً وبحراً. فإنّ الله سخر لنا الأمصار ودبر لنا البحار. وهو الذي يسيركم في البر والبحر إنه على ما يشاء قدير. والحمد لله على ما هدانا والسلام على النبي البشير النذير».[1]

في أعقاب التطوّرات، التي حصلت في المناطق المختلفة من شمال شبه الجزيرة العربية إلى حدود العراق وحتى في أعماق هذه المنطقة، كانت إيران تبدي تحفّظها إزاء قضية أمن الحجاج ومرورهم من مناطق غير آمنة. وفي هذا المجال جرت الكثير من المراسلات بين حكومة نجد والحكومة القاجارية بُحثت فيها قضايا مختلفة. ولم يتوقف الأمر من قبل حكومة نجد على الجوانب السياسية، بل إنّ امتداداتها العسكرية دفعت الحكومة الإيرانية إلى التدخّل. وقد دفَعت هزيمة حكومة نجد على يد الجيش الإيراني في مسقط في عام ١٢٢٦هـ وكذلك سقوط المدينة على يد قوات محمد علي باشا في عام ١٢٢٧هـ دفعت حكومة نجد إلى

---

١. گنجينه نشاط : ٢٥٦؛ و راجع كتاب تاريخيات : ٢٩٥.

إرسال مندوب إلى إيران طلباً لتحسين العلاقات معها. وعندما جاء هـذا الشخص وكان اسمه إبراهيم بن عبد الكريم، إلى إيران، استقبلته الحكومة الإيرانية.[١] ويبدو أنّ قضية طريق الحج كانت من جملة الأمور التي بُحثـت معه. وهذا ما جاء ذكره في عدد من المصادر القاجارية.

ورد في كتاب ناسخ التواريخ:

«وفي هذه السنة أيضاً أرسل سعود وفداً يحمل رسالة وهدية عبارة عن قطعة من الزمرّد النقي بحكم اترجّة، طالباً أن يمرّ حجّـاج العجـم إلى مكّة المكرّمة عن طريق أراضي نجد».[٢]

وفي روضة الصفا ناصري أورد تحت وقائع عام ١٢٢٨هـ ما يلي:

«وصل في هذه الأيّام موفدو سعود، وقدموا بين يـدي شـاه ايـران عريضة وتحفاً كان من بينها فصّ من الزمرّد مسطّح وبحجـم كـف اليـد، وطلبوا منه إكراماً للجوار بين البلدين أن يأذن لأهـالي إيـران مـن الآن فصاعداً أن يذهبوا إلى حج بيت الله عن طريـق نجـد، وإنهـم سـيقومون بكل ما يلزم لخدمة الحجاج».[٣]

وقد جاء هذا النص أيضاً في فارسنامه ناصري، ولكن مـع إضـافة مقطع قرب طريق نجد أي: **طلبـوا أن يُسـمح للحجـاج العجـم مـن الآن**

---

١. راجع: تاريخيات : ٢٩٩ نقلاً عن وثائق بومباي.

٢. ناسخ التواريخ، القسم القاجارية ١ : ٢٥١، نشر أساطير، طهران.

٣. روضة الصفا، ناصري ٩ : ٧٦٦٧ ، القسم ٢.

فصاعداً أن يسافروا إلى مكّة عن طريق نجد؛ وذلك بسبب قرب هذا الطريق، وإنهم سيقومون بكل ما يلزم لرعاية أحوالهم.[١]

وقد ورد هذا الخبر أيضاً في كتاب تاريخ ذي القرنين على النحو التالي:

«جاء بضعة نفر من قبل السعود اللامسعود بتحف لا تعدّ ولا تُحصى، وكان من بينها قطعة زمرّد بمقدار كفّ اليد نقيّة جداً وشفّافة وخالية من البقع والكدورات، وطلبوا في عريضة قدّموها ما يلي: يتقرر منذ الآن فصاعداً أن يكون ذهاب ومجيء الزوار الحجاج العجم عن طريق نجد بسبب قرب هذا الطريق حيث ستتخذ الإجراءات اللازمة لرعاية أحوال كل واحد منهم».[٢]

وكما جاء في النص المذكور آنفاً أنّ هذا اللقاء كان في عام ١٢٢٧هـ أو في عام ١٢٢٨هـ وجرى فيه بحث قضية طريق الحج وتوفير الأمن للحجاج.

وفي هذه الزيارة أو بعدها كتب صدر أعظم إيران رسالة إلى حكومة نجد بحث فيها قضية أمن الحجاج أيضاً. في ما يلي نص تلك الرسالة كما جاءت في كتاب «گنجينه نشاط، ص ٣٠٥»:

---

١. فارسنامه ناصري ١ : ٧١٠.

٢. تاريخ ذي القرنين ١ : ٣٧٧.

و لدينا نصّ يعود تاريخه إلى عام ١٢١٩هـ، ولابدّ أنه يتحدث عن مرحلة كانت فيها العلاقات متأزّمة بين إيران ونجد. وكانت قوافل الحج الإيرانية لا تذهب على طريق نجد وإنما عن طريق حائل، الذي كان هو الطريق الذي يسلكه الحجاج من قبل.

هذا النص يُعتبر من أقدم نصوص كتب الرحلات منذ بداية العهد القاجاري، وهي رسالة «منازل الحج» لمؤلفها بنده علي بن الميرزا خيرات علي، وكان قد كتبها في عام ١٢١٩هـ. «والمخطوطة موجودة في جامعة ميشيغان» في هذه الرحلة التي كانت في العقد الأوّل من عهد الحكم القاجاري، ذُكر أنّ مسير الحجاج كان عن طريق حائل، وهذا يدل على أنّ الوضع قد تغيّر عما كان عليه في السابق؛ أي في عهد الدولة الصفوية والدولة الزندية. وبما أنّ هذه الرسالة لم تُطبع، ننقل هذا المقطع في ما يلي عيناً:

«المسافة من النجف الأشرف إلى الرهبة خمسة فراسخ، والرهبة في الوقت الحاضر قرية تسكنها مائة عائلة تعمل في الزراعة، وأرضها ذات مرتفعات ومنخفضات. ويُقال: إنّ زبيدة خاتون كانت قد أمرت ببناء منارة بين كل فرسخين على امتداد المسافة من الرهبة إلى بغداد. وبما أنّ قوافل الحجاج كانت تسير ليلاً من منزل الرهبة إلى مكّة المكرّمة، وكانوا يضيئون فانوساً في منارة الرهبة، وكان على الناس أن يضيؤوا أيضاً فوانيس في المنارات الأخرى إلى بغداد، ليكون في علم زبيدة خاتون أنّ

قافلة الحجاج قد انطلقت في هذه الليلة. وفي الوقت الحاضر بقيت آثار قليلة من تلك المنائر.

وأما المسافة من الرهبة إلى أمّ القرون فهي اثنا عشر فرسخاً، وفيها حوض من الخزف[آجر]، وهي ليست عامرة، ويمتلئ حوضها بمياء الأمطار. ومن أمّ القرون إلى البركة اثنا عشر فرسخاً، ومن البركة إلى بركة سنگ چخماق (فيها المطرقة = **Flintstone**) اثنا عشر فرسخاً، ومن بركة سنگ چخماق إلى الحمام اثنا عشر فرسخاً؛ حيث كانت زبيدة قد بَنت حماماً هناك، وقد اندثر حالياً.

ومن الحمام إلى البركة اثنا عشر فرسخاً، ثم إلى البركة الأخرى اثنا عشر فرسخاً، وأيضاً إلى البركة الأخرى اثنا عشر فرسخاً. ومن البركة إلى لينة اثنا عشر فرسخاً، وفيها ثلاثمائة وست وستون بئراً، وهي موضع قبيلة شَمّر العرب الذي بناه النبي سليمان عليه السلام. وهذه الآبار كلّها مبنية بالحجر. ومن لينة إلى أول الصحراء فرسخ واحد، وثلاثة منازل في الصحراء وهي خالية من الماء. وهذه الصحراء ذات مسافة طويلة جداً.

وبعد هذه المنازل الثلاثة في الصحراء، تأتي أوائل موضع ماء جبل شمّر. ويمتدّ الطريق من البئر إلى جبل شمّر اثنا عشر فرسخاً، ومن جبل شمّر إلى داخل القلعة المعروفة باسم حائل يمتدّ الطريق ستّة فراسخ. وفي هذه المواضع تسكن قبائل شمّر.

شمّر هذه تمثّل واحدة من مدن نجد التي فيها مدن أخرى كثيرة. وأما أهالي قلعة شمّر خمسة عشر ألف عائلة، وهناك أربعون ألف عائلة في البادية عند مواضع الماء، ولديهم جمال وأغنام وخيل...

ومن قلعة حائل إلى غفار أربعة فراسخ، وهناك يعيش خمسة آلاف عائلة من أهل غفار. ومن غفار إلى ثلاثة منازل يبلغ طول مسافتها ست (ستة) وثلاثين فرسخاً وتكون البادية فيها خالية من الماء، ثمّ بعد ذلك يأتي موضع ماء يُسمّى غزالة وفيها بئر ماء.

ومن بعد منزل غزالة تأتي ثلاثة منازل أخرى مسافتها ست (ستة) وثلاثون فرسخاً لا ماء فيها، حيث يأتي بعد ذلك موضع بئر يُسمّى الملح.

ومن بئر الملح أربع وعشرون فرسخاً إلى داخل الطريق السلطاني حيث يصل هناك إلى موضع ماء.

ومن موضع ماء يمرّ اثنا عشر فرسخاً إلى البركة الشريفة التي هي موضع إحرام، وهي أول وادي العقيق الذي يسمّى الأولى، وهو موضع إحرام الفرقة الناجية الإمامية».

از جانب صدر اعظم بسعود فرمانروای نجد و حجاز نوشته شده

سلام از ربی من الزهر و اهی من الدرر موشح به صدر الاخلاص و المحبه مزجاه علیه کالدلاص علی حضرت علیه بهیته قد علی بهاجیل النجد و انبسط لهابر المجد ارتسم السعود فی السماء باسمها و استم النحوس فی البلاء

۳۰۵

بخصمها برها علی البریه بحری فی البر تموج وجودها علی الخلیقه فجر من الجمل تبلج سلک قوافل الارب محلات النسب الیها فلا زالت رواحل المجد معقوله الزمد لدیها و بعد فلا یخفی علی الضمیر المنیر و الشمس منه تستعیر انه عرض مرارا اسرا و جهارا علی الحضره السنیه العالیه النجاقانیه روحی فداه و اعلی الله علاها ان خدامکم الکرام لا یزالون یسعون فی رعایه عابری ذاک السبیل و قاصدی بیت الله الجلیل سیما مسافری هذه البلاد فرعوا فیهم حق الوداد و لا غروا ذا الرسوم بین الجانبین محفوظ و القلوب من الود محفوظه فلما انکشف امر العشر انتهی فی بدی الممالک عن سلوک طریق غیر تلک المسالک فشد الرحال الی المحال علی حسب الحکم المتعال و اذا غرم السید الجلیل و الحبر النبیل ذو الحسب المنیع و النسب الرفیع مقتدی الانام علامه الایام میرزا هدایت الله مع اخویه المحترمین علی طواف الحرمین المکرمین و معهم حشم من الحجاج و هم هموا ذلک المنهاج و نرجو انکم ان تبقوا الیهم بعین العنایه و تامروا اتباعکم و اشیاعکم بحسن الرعایه فاسلکوهم الی الطریق التهامه و ادخلوهم الی البلد الامین و لنا ایضا امل ان یکون مرفوعا بیننا الحجاب و یسعی الرسل عن امرنا بالکتاب و السلام علیکم و رحمه الله و برکاته

استمرار المشاكل وتأثيرها على طريق الحج

تواصلت جهود ايران لتطويق نشاطات حكومة نجد، وذلك عندما أرسلت إيران سفيراً إلى مصر للقاء محمدعلي باشا. وقد وردت أخبار ذلك مصادر الحكم القاجاري.[١]

هناك احتمال كبير، أنه في كثير من السنوات الواقعة بين عام ١٢١٤هـ إلى عام ١٢٢٧هـ لم يتمكن الحجاج من أداء مناسك الحج، وإن كُنّا غير متأكدين تماماً من ذلك. فالأخبار التي كانت تصل إلى إيران يومذاك حول الأحداث في تلك البلاد، أثارت الهلع في النفوس بحيث أنه لم يتجرّأ أحد على الذهاب إلى نجد. وقد قدّم الميرزا أبوطالب الأصفهاني (م١٢٢١هـ) وصفاً تفصيلياً لتلك الأوضاع.[٢]

وقد أورد الميرزا أبوطالب الرسالة التي كانت قد بعثتها حكومة نجد إلى الحكومة الإيرانية، إلاّ أنّ هذه الرسالة بالفارسية، ولابدّ أنها كانت ترجمة عن رسالة مكتوبة باللغة العربية.

هناك تقرير يعود تاريخه إلى عام ١٢٣٠هـ أي قبل ثلاث سنوات من سقوط حكومة نجد الأولى، وهو يظهر أنّ منطقة الجبل أيضاً كانت تحت سيطرة تلك الحكومة عن نحو ما، ولم يكن الحجاج الإيرانيّون

---

١. روضة الصفا، ناصري ٩ : ٧٧٦٥، الباب ٢.

٢. مسير طالبي: ٤١١.

والشيعة يشعرون بالأمان في ظل تلك الظروف. وقد كتب عبد الحسين كرناتكي في ذلك التاريخ ما يلي:

«في يوم الثلاثاء، العشرين من شهر ذي القعدة: حملوا أمتعتهم عند منتصف الليل. في تلك الليلة كان الجوّ ملبّداً بالغيوم، وكانت الرياح شديدة، ثمّ أخيراً هطل المطر وكان الظلام شديداً. وبعد قطع مسافة ذلك المنزل، وصلت القافلة في أول العصر إلى جبل شمّر، وكان الشخص الوجيه هناك يسمّى محمد بن علي، وكانت تلك القرية اسمها حائل. ونزل الحجاج هناك وفي الحقيقة كان موضعاً جيداً جداً وكان فيه ماء عذب. وكانت هناك عند قاعدة ذلك الجبل مدينة تمتدّ طولاً، وكانت هناك بساتين كثيرة. وامتدت الإقامة هناك عدّة أيّام، وكان الجوّ لطيفاً والهواء منعشاً والطبيعة زاهية... كانت أجواء تلك المدينة في غاية الحسن، والطرق فيها مسطّحة وقويمة، والناس فيها حسنو البشرة وصباح الوجوه وملاح، ولكنها وللأسف في أيدي الوهابية، والناس فيها لصوص وأشرار. ولكن كبار القوم فيها من ذوي المجاملة، مثلما هو الحال بالنسبة إلى محمد ابن علي الذي أرسل إليَّ خروفاً على وجه الضيافة، وقدّمت أنا لمبعوثه كوفية (غترة)، ففرح بها وانصرف».[1]

---

١. خمسون رحلة سفر إلى الحج، من العهد القاجاري (پنجاه سفرنامه قاجاري) ١ : ٢٨٤.

ثمّ إنه يشير ـ بعد التوقّف هناك عدّة أيّام ـ، إلى أنه عند انطلاقهم في السفر، كان معهم دليلان: أحدهما من قِبل حاكم الجبل، والآخر من قِبَل سعود حاكم نجد. وكان من المقرر أن يصلوا إلى مكّة المكرّمة خلال عشرة أيّام.

يوم الأحد الخامس والعشرين من ذي القعدة، بعد صلاة الصبح، حمل الحجاج أمتعتهم. الدليل الذي أُرسل من قبل جبل ابن علي، كان اسمه قتلان. وأما الدليل الذي أرسله سعود بن عبد العزيز فكان وهابياً، ولم يكن هناك دليل أفضل منه. ففي تلك الأيّام كان يسير حتى في الليالي الحالكة الظلام. وكان قد قطع عهداً على إيصال قافلة الحجاج إلى مكّة المكرّمة خلال عشرة أيّام.[1]

لم يكن الطريق آمناً، ورغم أنّ حاكم الجبل كان قد أوصى بأن يصطحبوا معهم جنوداً ومسلحين، إلا أنّ رؤساء القوافل لم يفعلوا ذلك، فهجم اللصوص عليهم في الطريق وسلبوا منهم كل شيء:

«ولم يصطحب الحجاج ورؤساء القوافل معهم مسلحين من الجبل، رغم أنّ محمد بن علي حاكم الجبل كان قد أوصاهم بذلك. وكان التقصير في ذلك من قِبل رؤساء القوافل. فنهبوا من الحجاج كلّ شيء ولم يبقوا

---

١. المصدر نفسه : ٢٨٦.

على رأس الحجاج عمامة ولا عباءة ولا كوفية. فضاقت الأمور على الحجاج، ولم يجرء أحد منهم على الخروج من الخيمة إلى الخلاء».

شرحه في هذا الباب وحكايته حول عدم أمن الطريق كان مروّعاً، والمعلومات التي قدّمها تتحدث عن القبائل الساكنة على طول الطريق.

وفي تلك الأثناء وصل مندوب من حكومة نجد، وعبّر عن احتجاجه قائلاً: لماذا فعلوا على خلاف ما أرادته حكومة نجد، وجاءوا عن طريق الجبل؟! فهم يستحقون ما جرى عليهم. في هذا الوقت كان مبعوث عبد الله بن سعود من الدرعية، مبارك الظاهري قد دخل وبرفقته مائة مسلّح، وقال: إنه قد جعلني أميراً مكلفاً بإدارة شؤون الحجاج، وبعثني إليكم. وقال عبد الله: إنّ الحجاج جاءوا عن طريق الجبل خلافاً لما أمرتُ به؛ ولذلك فهم يستحقون أن يُقتلوا وتُنهب أموالهم. ولكنني عفوت عنهم وهم الآن في أمان.

ووفقاً لما جاء في سرده لتلك الأوضاع أنّ القافلة كانت تواجه ثلاثة مشاكل أساسية، وهي: العرب الذين كانوا يأخذون الضرائب (الخاوة) وهم من أفراد قبيلة عنيزة، والبدو الذي كانوا يسلبون أموال الحجاج، وكانت حكومة نجد قد أوفدت مندوباً ولكن لم يكن قادراً على بسط الأمن أو أنه لم يكن يريد فعل ذلك.

في ذلك الوقت كانوا نادمين تماماً؛ لأنهم لم يصغوا لنصائح أحد علماء النجف وكان اسمه سيد علي، الذي كان قد أمرهم بعدم المسير على

هذا الطريق، ودعاهم إلى السفر عن طريق الشام: «نـدمنا وأسـفنا علـى المجيء نحو جبل شمّر وبقينا نوبّخ أنفسنا على الدوام بسبب مخالفتنا لـرأي وأمر سماحة السيد مجتهد العصـر والزمـان سـيد علـي ــ دام فضـله ــ ولم نذهب عن طريق الشام».[١]

لحق بنا شخص اسمه مبارك، كان قد بعثه سعود حاكم نجـد، ومعـه شخص اسمه قتلان، وأرادوا مالاً معيناً وأقفوا القافلة كلّها. وانتاب القلـب جميع أفراد القافلة الذين أخذوا يشعرون بأنّ وقت الحج سيفوتهم. وعلـى كلّ الأحوال فقد كان من الصعب على الحجاج إعطاءه ذلك المال، ولكـن مبارك أصرّ على أخذ المال منهم.[٢] وأخيراً رضي بمبلغ من المال وتحركـت القافلة، وما لبث أن جاء أفراد من قبيلة حـرب! وأرادوا أخـذ ضـرائب (الخاوة) بالقوّة؛ فانتاب الخوف والهلع جميع الناس، فبـادروا بـالفرار مـن ناحية إلى ناحية أخرى من دون اختيار، ولكن في نهاية الأمـر جمعـوهم؛ فأصبحت هناك على جوانب القافلة مجموعتان: إحداهما من قِبـل حـاكم نجد، والأخرى من قِبل قبيلة حرب. وحينئذ لم يكن قد بقي إلا ستة أيّام لبدء مناسك الحج، فسقط وقـت الحضـور لأداء المناسـك عمليّـاً، فعـزم الحجاج على الذهاب إلى المدينة المنوّرة والبقاء فيهـا. وبنـاءً علـى ذلـك وبسبب انعدام الأمن في الطريق، و وجـود قـوات متعارضـة بعضـها مـع

١. المصدر نفسه: ٢٩١.

٢. المصدر نفسه: ٢٩٣.

بعض، لم تصل قافلة الحجاج في ذلك العام إلى مكّة المكرّمة في وقت الحج.

هذه القصة التي كانت قد وقعت في عام ١٢٣٠هـ نقلها عبد الحسين كرناتكي بالتفصيل.[١]

وهدفنا من وراء نقلها هنا، هو تقديم صورة عمّا كانت عليه الأوضاع يومذاك؛ مما يدعو إلى الأسف أنّ كتب الرحلات التي كُتبت بعد عام ١٢٣٠هـ يعود أول واحد منها إلى عام ١٢٦٠هـ فكان هذا سبباً لعدم حصولنا على المعلومات اللازمة حول ما كان قد وقع آنذاك.

إنّ **محمد ولي ميرزا** قد سافر إلى الحج في عام ١٢٦٠هـ عن طريق الجبل. ومن بعد ذلك كان الحجاج يسلكون هذا الطريق عادة. ورغم المصاعب الكثيرة التي كانت تكتنف هذا الطريق، إلاّ أنه غدا الطريق الرئيسي الذي يسافر عبره الحجاج الإيرانيون إلى الديار المقدّسة. ويُعزى سبب ذلك إلى أنه كانت سيطرة حكومة معيّنة على ذاك الطريق، ولم يكن لتلك الحكومة من منافس سوى القبائل البدوية، وهي قبائل كانت حكومة الجبل قادرة على إخضاعها لسلطتها.

هذه العبارة التي أوردها محمد ولي ميرزا تكشف عن هذا التفاهم:

---

١. المصدر نفسه: ٢٩٧...

«في يوم الثلاثاء المصادف الخامس عشر من الشهر وصلنا إلى الجبل. ومنذ الصباح الباكر صدر أمر بأن لا تسير قافلة الحجاج قبل شروق الشمس. ومن بعد شروق الشمس أخذوا يسيرون جماعات جماعات؛ أي أنه دعا كل رئيس قافلة مع الحجّاج من أفراد قافلته وسجّل أسماءهم، وقد تأخروا لمدّة ساعتين. وبعد ساعتين سار الحجاج. وفي الطريق استقبلهم ما يقارب ثلاثون (ثلاثين) فارساً، فقد كان عبد الرحمن آل رشيد قد جاء مع إبني عبد الله، وجالوا قليلاً على خيولهم. وقد سقط أحد ابني عبد الله من على ظهر الفرس واصطدم بالأرض بشدة. وبعد الظهر دخلنا منزلاً يتصل بالجبل في موضع بنوا فيه حائطاً. ونزل الجميع في ذلك الموضع وفي يوم وصولنا قدّم عبد الله للحجاج ما يُقارب مائة خروف من باب التكريم، وأرسل لنا أيضاً رأسين منها».[١]

وهذا يدلّ على أنّ طريق نجد قد ذهب أدراج النسيان تقريباً، وأدنى ما يمكن قوله هو إنّ الحجاج الإيرانيين الذين كانوا يتجمّعون في النجف كانوا يعوّلون على حكام الجبل، ويذهبون إلى مكّة من هذا الطريق، ولا يذهبون من طرق أخرى.

ويؤيد ذلك ما كتب بلجريف (پالگريو انگليسى) في سنة ١٨٦٢م/١٢٧٨هـ حول التفاوت بين سياستين، سياسة آل رشيد

١. خمسون رحلة سفر إلى الحج، من العهد القاجاري، (پنجاه سفرنامه قاجاري) ١ :٥٠٥.

و سياسة الوهابيين بالنسبة إلى الشيعة وما يعتقد كل واحد منهم بالنسبة إليهم. بلجريف يشير إلى سياسة طلال في جذب قسم من فلوس الحجاج إلى الحائل ويقول:

«**الطريق عبر وسط الجزيرة العربية مرور (مروراً) بنجد، وهو طريق أقصر نسبتاً (نسبةً) وسهل، ولكن تسامح الوهابيين كانوا يظنون أنّ أراضيهم ستصاب بالدنس، إذا ما وطأتها أقدام أولئك الملحدين التعساء...!!! ولكن السنة والشيعة في ظلّ حكم طلال، كانوا عنده سواء، ولم يكن من طبعه فرض رسوم إضافية، أو تقديم متطلبات إضافية، على إي حاج من الحجاج، سبب آرائه الدينية مهما اختلفت ألوانها**».[1]

المصادر:

ـ إحياء الملوك، شاه حسين بن غياث الدين محمد، طهران، دار نشر علم، ١٤٢٥هـ.

ـ پنجاه سفرنامه حج قاجاري، باهتمام رسول جعفريان، طهران، دار نشر علم، ١٤٣٢ هـ.

ـ تاريخ امپراطوري عثماني، هامر پورگشتال، ترجمة (إلى اللغة الفارسية) الميرزا زكي علي‌آبادي، طهران، دار نشر أساطير، ١٤٢٧هـ.

ـ تاريخ ذو القرنين، فضل الله خاوري شيرازي، دار نشر طهران.

---

١. وسط الجزيرة العربية ١ : ٢٣٥.

ـ تاريخيات، حسين مدرسي، نيوجرسي، دار النشر زاگرس، ٢٠٠٩م
ـ تذكره صفويه كرمان، مير محمد سعيد مشيزي، باهتمام محمد إبراهيم باستاني پاريزي، طهران، دار نشر علم، ١٤١٠هـ.
ـ حدائق الجنان، المخطوطة المحفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في إيران، برقم ٩١٢، الورقة ١٧.
ـ خلاصه التواريخ، أحمد بن المير منشي القمي، طهران، جامعة طهران، ١٤٢٥هـ.
ـ الدر المنثور.
ـ راهنماي دانشوران، علي أكبر برقعي، قم، ١٤٢٦هـ.
ـ روضة الصفا، باهتمام جمشيد كيان فر، طهران، دار نشر أساطير، ١٤٢٢هـ.
ـ سفرنامه شاردن (= رحلة شاردن)، طهران، دار نشر توس، ١٤١٣هـ.
ـ سياست وفرهنگ روزگار صفوي (= السياسة والثقافة في العصر الصفوي)، رسول جعفريان، طهران، دار نشر علم، ١٤٣٠هـ.
ـ عنوان المجد، ابن بشر، مكة، المطبعة السلفية.
ـ فارسنامه ناصري، حسن فسائي شيرازي، طهران، دار نشر أميركبير، ١٤٢٤هـ.
ـ الفوائد الرضوية، الشيخ عباس القمي رحمه الله، قم، ١٤٢٧هـ.

ـ گنجينه نشاط: كليات ديوان نشاط اصفهانى، انتشارات كتابفروشى محمودى.

ـ المجموعة المخطوطة المرقّمة: ١١٦٣٩ المحفوظة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

ـ مسير طالبي، ميرزا أبوطالب، تحقيق حسين خديو جم، طهران، ١٤٢٥هـ.

ـ منازل الحج، مخطوطة جامعة ميشيغان.

ـ ناسخ التواريخ، باب القاجارية، محمد تقي سپهر، طهران، دار نشر أساطير، ١٤١٩هـ.

ـ وقايع السنين والأعوام، خاتون آبادي، تحقيق محمد باقر بهبودي، طهران، ١٤٩٣هـ.

ـ وسط الجزيرةالعربية وشرقها، ويليام جيفورد بلجريف، ترجمه صبري محمد حسن، القاهره، ٢٠٠١م.

ـ هفت اقليم (= الأقاليم السبعة)، أمين أحمد رازي، طهران، دار نشر علي أكبر علمي.

* * *